



عاشق المدينة المغترب: أبو
قطيفة الأموي^(١) من شعراء
المدينة المنورة المتميزين في
العصر الأموي المغرب المشتاق،
والمبعد المحموم بحب المدينة،
عمرو بن الوليد بن عقبة بن أبي
معيط، واسمه أبان بن أبي عمرو
ابن أمية بن عبد شمس بن عبد
مناف أبو الوليد القرشي الأموي
المدني المعروف بابي قطيفة.

عاشق المدينة المغترب: أبو قطيفة الأموي

وانما قيل له: أبو قطيفة لكثرة شعر رأسه ولحيته، شُبّه
بالقطيفة. شاعر محسن، سيّره ابن الزبير في جملة من سيّر من
بني أمية إلى دمشق. فهو من الذين عاقبهم ابن الزبير بتفريبتهم
عن موطنهم، وذلك للحرب القائمة بينه وبين الأمويين، فكان
ذنب أبي قطيفة كونه أمويًا، وقد أنتج لنا هذا التغريب وهذا
البعد شعراً في الحنين والشوق إلى المدينة عذباً حزيناً، تظهر فيه
اللوعة، وشدة الألم لهذا الإبعاد القسري.

ولم تلهه ينابيع بردى، وغوطة دمشق عن ملاعب صباه في
المدينة مثل: يلبن، وبرام، والبقيع. أما الكآبة، والحزن، والزفير،
وقلة النوم التي تجمعت على أبي قطيفة فتدلنا على شاعر يدرك
أبعاد هذه الفرقة، فهي ليست مجرد تغريب شاعر عن وطنه،



د. عبد الرزاق حسين - الأردن

ولكنها حرب الإخوة وأبناء العم، التي قد يشيب
الغلام من هول نتائجها الوخيمة على بني قومه، فهو

إلى جانب عشقه، يبين عن حس مرهف نحو الأحداث
التي ستجر الويلات على قومه، وهذا يدل على رهافة
شعوره، وإحساسه بالمسؤولية نحو دينه، ووطنه،
وأهله، ومن تشوقه إلى المدينة قوله^(٢):

لَيْتَ شِعْرِي هَلِ الْمَدِينَةُ كَعَهْدِي

وَالْمُصَلَّى إِلَى قُصُورِ الْعَقِيقِ

لَا مَنِي فِي هَوَاكَ يَا أُمَّ يَحْيَى

مَنْ مُبِينِ بَغْضِهِ أَوْ صَدِيقِ

وتبقى «ليت» التمني تلاحق الشاعر، وتربطه
بوتد خيمة الأهل في المدينة، وبعراصها، وحاتراتها
وأسواقها، وأماكنها المقدسة التي ظلت الشغل الشاغل
لهذا الشاعر في غربته، يقول^(٤):

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلِ تَغْيِيرُ بَعْدُنَا

قُبَاءٌ وَهَلِ زَالَ الْعَقِيقُ وَحَاضِرُهُ

وَهَلِ بَرَحَتْ بَطْحَاءُ قَبْرِ مُحَمَّدٍ

أَرَاهُطُ غُرًّا مِنْ قُرَيْشٍ تُبَاكِرُهُ

لَهُمْ مَنْتَهَى حُبِّي وَصَفْوُ مَوَدَّتِي

وَمَحْضُ الْهَوَى مَنِي وَلِلنَّاسِ سَائِرُهُ

لله درُّ هذا العشق الذي مزج المكان بالإنسان،
وخلط الجماد بالحي، وعبر عن عواطف الشوق
والحنين بالحرص على وحدة القوم، والدعوة إلى
تآلفهم، والغيرة على مصالحهم!

ويظل أبو قطيفة في غربته مشغولاً بمدينته
الحبيبة، وما يخيفه هو تغيُّر عهدها، وهذا التغير
الذي يخشاه تغيُّر رمزي وواقعي، أمَّا الرمزي، فهو
من باب الغزل، فالحبيب إذا بعدت عنه الحبيبة قد
يسلو أو قد تسلو عنه، فتتغير العواطف، وأمَّا الواقعي
فالحرب الزبون التي قد تقع بين ابن الزبير وعبد
الملك بن مروان ستشرد الأهل، وتقتل الأحباب،
وتحرق الأخضر واليابس، وتغيّر المعالم، ومن هنا

ولكنها حرب الإخوة وأبناء العم، التي قد يشيب
الغلام من هول نتائجها الوخيمة على بني قومه، فهو
إلى جانب عشقه، يبين عن حس مرهف نحو الأحداث
التي ستجر الويلات على قومه، وهذا يدل على رهافة
شعوره، وإحساسه بالمسؤولية نحو دينه، ووطنه،
وأهله، ومن تشوقه إلى المدينة قوله^(٢):

لَيْتَ شِعْرِي وَأَيَّنَ مَنِي لَيْتَ

أَعْلَى الْعَهْدِ يَلْبَنُ قَبْرَامُ

أَمْ كَعَهْدِي الْبَقِيعُ أَمْ غَيْرَتُهُ

بَعْدِي الْمَعْصِرَاتُ وَالْأَيَّامُ

أَقْطَعُ اللَّيْلَ كُلَّهُ بِاِكْتِنَابِ

وَزَفِيرِ فَمَا أَكْثَادُ أَنْامُ

نَحْوِ قَوْمِي إِذْ فَرَّقْتَ بَيْنَنَا الدَّاءِ

رُوجَارَتْ عَنْ قَصْدِهَا الْأَحْلَامُ

خَشِيَّةٌ أَنْ يَصِيبَهُمْ عَنَتُ الدَّهْرِ

رُوحَرَبٌ يَشِيبُ فِيهَا الْغَلَامُ

وَلَقَدْ حَانَ أَنْ يَكُونَ لِهَذَا الدَّهْرِ

دَهْرٌ عَنَّا تَبَاعَدُ وَانْصِرَامُ

وَبِقَوْمِي بَدَلْتُ لَحْمًا وَكَلْبًا

وَجَذَامًا وَأَيَّنَ مَنِي جَذَامُ

أَقْرَ عَنِّي السَّلَامُ إِنَّ جَنَّتْ قَوْمِي

وَقَلِيلُ لَهْمٍ لَدَيَّ السَّلَامُ

إِنَّ غَيْبَتَهُ عَنْ مَلَاعِبِ صِبَاهٍ، وبعده القسري عنها
أنتجا هذا السؤال الممض، هل بقيت تلك المعالم كما
عهدها؟ أم غيَّرها ما غيَّر النفوس من تلك الأحداث
الجسيمة التي تمر بها المدينة؟ ذلك سؤال حاد لا يقف
عند تغير المكان، وإنما يتعداه لتغير النفوس، فالألم
الممض الذي جعله أرقًا لا يعرف طعمًا للنوم بعد هذه
الفرقة التي فرقت قومه، بغياب عقول الرجال، وهذا
الخلاف العميق بين أبناء الدين والعرق والوطن،
وخشيته من الأشد القادم، من حرب تطحن الجميع،



يصف معالم الطبيعة وصفاً خارجياً جافاً، فلم يصل إلى الأعماق النفسية لها، فيحاورها وتحاوره، ويسحب عليها مشاعره، ففي هذه الأبيات ما ينقض تلك الأقوال، يقول أبو قطفية^(٦):

بكى أحد أن فارق النوم أهله

فكيف بذى وجد من القوم ألف

أمن أجل أبي بكر جلت عن بلادها

أمية والأيام عوج عواطف

فالفرقة التي قضت على تلك الألفة، هي التي جعلت أحداً يبكي ويتألم، وهو يرى أن ما يحدث إنما كان بسبب أبي بكر عبد الله بن الزبير، فقد أجلى بني أمية عن ديارهم، وأبعدهم عن أحببتهم، فلذلك يبكي الجبل أهله الذين نزلت بهم هذه النازلة.

ويبدو أن هذا الشعر اتراثق في الحنين قد بلغ ابن الزبير فرقاً له، وعفا عنه، وبعث له من يعلمه بالسماح له بالعودة إلى المدينة، ولكنَّ القدر كان أسرع من شوق المشوق، فقضى وهو عائد إلى وطنه الذي أحب، ومنزله الذي هجره على الرغم منه، وأهله الذين يكن لهم كل الحب، إذ ذكر أن ابن الزبير لما بلغه شعر أبي قطفية قال: حنَّ والله، أبو قطفية، وعليه السلام ورحمة الله، من لقيه فليخبره أنه آمن فليرجع، فأخبر

نجد هذا القلق لدى الشاعر على معالم مدينته من أن تتغير بعده، وإلا لماذا تلح عليه هذه العبارة، وتكرّر في شعره هذه الفكرة؟ يقول^(٥):

أيا ليت شعري هل تغير بعدنا

بقيع المصلّى أم كمهدي القرائن

أم الدور أكناف البلاط عوامر

كما كن أم هل بالمدينة ساكن

أحن إلى تلك البلاد صباة

كأنّي أسير في السلاسل راهن

فما أخرجتنا رغبة عن بلادنا

ولكنه ما قدر الله كائن

لعل قريشاً أن تريع حلومها

ويزجر بعد الشؤم طير أيا من

إذا برقت نحو الحجاز سحابة

دعا الشوق مني برقها المتيامن

وما أصعب على النفس أن تكون طليقة وهي تشعر بالأسر والشارع هنا على الرغم من أنه في ملك عشيرته في الشام، إلا أنه ينظر إلى أبعد من العشيرة، إنه يمتد ببصره الثاقب إلى قريش، التي ينتمي لها، ويتمنى لها أن تعود إلى عقولها، وأن تزجر طير الشؤم، وتطلق طير اليُمن، فيحلق في سماء صافية، وجدير مثل هذا العشق أن يُقدّر، ومثل هذا الحرص أن يرفع من هذا الشعر، ويرتفع به.

ففي شعر هذا الشاعر يمتزج حب الوطن بالحرص على قومه، ويهيب بهم من الوقوع فيما لا تحمد عقباه، ولذلك يتجسّد هو في جبل أحد، ويتبادل مع ذلك الجبل العواطف والمشاعر، فكأنَّ جبل أحد هو أبو قطفية في غربته وبعده، وأبو قطفية هو الجبل كذلك في حزنه وبكائه، فقد يفترّب الإنسان وهو بين أهله إذا استحرّ العداء، ولعلَّ في بكاء هذا الجبل ما يردُّ على من قال من النقاد بأنَّ الشعر العربي القديم

بذلك، فانكفأ إلى المدينة راجعاً، فلم يصل إليها حتى مات. وقد ورد هذا الخبر في كثير من مصادر ترجمة الشاعر^(٧).

وقد ورد في رواية أنَّ أبا قطيفة^(٨) (كان يتحرق على المدينة فأتى عباد بن زياد ذات يوم عبد الملك، فقال له: إن خاله أخبره أن العرايين قد فُتِحَا. فقال عبد الملك لأبي قطيفة لما يعلمه من حبه المدينة: أما تسمع ما يقوله عباد عن خاله؟ قد طابت لك المدينة الآن.

فقال أبو قطيفة:

إِنِّي لِأَحْمَقُ مَنْ يَمْشِي عَلَى قَدَمِ

إِنْ غُرْنِي مِنْ حَيَاتِي خَالُ عَبَادِ

أَتَشَأْ يَقُولُ لَنَا: الْمَصْرَانِ قَدْ فَتَحَا

وَدُونَ ذَلِكَ يَوْمَ شَرُّهُ بَادِي

وهذان البيتان، وهذا الخبر، لها دلالة على ما قلناه من بعد نظر الشاعر، ورؤيته الثاقبة، وتطلعه إلى وحدة قريش وملكها.

والجميل في شعر الحنين والعشق هذا هو تلك

الهوامش:

(١) انظر ترجمته في معجم الشعراء

٢١/١، لأبي عبيد الله محمد بن عمران

المرزباني، بتصحيح وتعليق: الأستاذ

د.ف. كرنكو، مكتبة القدسي، دار الكتب

العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية،

١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م.

ومختصر تاريخ دمشق ٢٦٥٤/١، لابن

عساكر، اختصار محمد بن مكرم بن

علي، أبو الفضل، جمال الدين بن منطور

الأنصاري الرويفي الأفريقي، تحقيق:

روحية النحاس، رياض عبد الحميد

مراد، محمد مطيع، دار الفكر للطباعة

والتوزيع والنشر، دمشق، سوريا، الطبعة

الأولى، ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٤ م.

- وجاء في الأماكن أو ما اتفق لفظه وافترق

مسماه ١٧/١، لأبي بكر محمد بن موسى

ابن عثمان الحازمي الهمداني، زين

الدين، تحقيق حمد بن محمد الجاسر،

دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر،

١٤١٥ هـ.

(٢) مختصر تاريخ دمشق ٢١٨/١٩.

(٣) جمهرة أشعار العرب ٤٣٧/١، لأبي زيد

القرشي، حققه وضبطه وزاد في شرحه:

علي محمد البجادي، نهضة مصر

للطباعة والنشر والتوزيع.

(٤) الأغاني، ٢٢٦/٨، لأبي الفرج الأصفهاني،

طبعة بولاق ١٢٨٥ هـ.

(٥) الحماسة البصرية ١٢٣/٢، لعلي بن

أبي الفرج بن الحسن، صدر الدين، أبو

المقارنة بين المدينة المنورة وأهلها، والشام وأهله، حيث تصب في مصلحة الأولى، يقول الشاعر مبيناً عن فضل المدينة وأهلها على الشام وأهله^(٩):

وَلِحَيِّ بَيْنَ الْغُرَيْضِ وَسَلْعِ

حَيْثُ أَرَسَى أَوْتَادَهُ الْإِسْلَامُ

كَأَنَّ أَشْهَى إِلَيَّ قَرَبُ جَوَارِ

مَنْ نَصَارَى فِي دَوْرَهَا الْأَصْنَامُ

مَنْزَلٌ كُنْتُ أَشْتَهِي أَنْ أَرَاهُ

مَا إِلَيْهِ لَنْ بِحِمَصٍ مَرَامُ

وتتكرر هذه المقارنة، فيقول مرة أخرى^(١٠):

الْقَصْرُ فَالْنَحْلُ فَالْجَمَاءُ بَيْنَهُمَا

أَشْهَى إِلَيَّ الْقَلْبُ مِنْ أَبْوَابِ جَبْرُونَ

إِلَى الْبِلَادِ فَمَا حَازَتْ قَرَائِنَهُ

دَوْرُ نَزَحْنِ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْهَوْنِ

ويتوقف هذا القلب العاشق وهو في طريقه إلى

معشوقته، لم يقدّر له أن يعرف جواب أسئلته التي ألح

عليها، ولكنَّ أسئلته هذه تظل رسالة جوابية مفتوحة

يقرأها العاشقون من بعده ■

الحسن البصري، تحقيق: مختار الدين

أحمد، عالم الكتب، بيروت.

(٦) الحماسة البصرية ١٦٠/١، ومعجم

الشعراء ٢٤٠/١، ومختصر تاريخ

دمشق ٣١٨/١٩.

(٧) معجم الشعراء ٢٤٠/١، ومختصر تاريخ

دمشق ٣١٩/١٩.

(٨) انظر ما ورد في مختصر تاريخ دمشق

٣١٩/١٩.

(٩) الأغاني ٢٢٦/٨.

(١٠) المغامم المطابة في معالم طابة ٩٤٠/٣،

لمجد الدين الفيروزآبادي، مجموعة

محققين، مركز بحوث ودراسات المدينة

المنورة، الطبعة الأولى، ١٤٢٣ هـ /

٢٠٠٢ م.